الفصل السادس

النقد الحديث كما يراه إليوت

فى المحاضرة التى ألقاها إليوت فى جامعة مانيسوتا بأمريكا سنة ١٩٥٦ تحت عنوان « حدود النقد »[١] أضاف عدة آراء للاتجاهات السالفة التى سبق أن أعلنها على صفحات الكتب والمجلات وفى المحاضرات العامة . لقد نوّه أولا إلى تغير اتجاهات النقد فى الفترة الأخيرة منذ عصر الناقد الفذ كولريدج[٢] إبان الحركة الرومانسية إلى وقتنا الحاضر . والسبب فى ذلك مرده إلى تقدم العلوم الاجتماعية فى السنوات الأخيرة وبخاصة فى النصف قرن الماضى . ولقد انعكس هذا التقدم على أساليب النقد واتجاهاته . هذا إلى تأثر النقد أيضاً بالمنهاج العلمى الذى خطا فى القرن العشرين خطوات وثابة واسعة ، كما تأثر أيضاً بالدراسات النفسية التى انعكست بدورها على فروع الأدب والفن المختلفة . وأضاف إليوت إلى هذه الأسباب التى أدت إلى تشكيل قضايا النقد عدة مشاكل أخرى لا تقل عنها أهمية مما قد أدت إلى تحويل دفة النقد إلى وجهات جديدة وآفاق لم يسبق له أن طرقها . وهذه القضايا الجديدة هى الصراع النفسى والحيرة الفكرية والقلق الذى انتاب الناس بعد أن فقدوا الثقة فى القيم المختلفة ، فلم يعد هناك رادع أو وازع أو نقطة ارتكاز يستند إليها الباحث أو المفكر . ولهذا تشعبت فروع النقد لمحاولته طرق هذه الميادين الجديدة ، فأصبحت وظيفته هى الاستمتاع بالأدب وإعادة فهمه فى عمق وإمعان ثم تفتيح الأذهان لما استجد من تفاعلات مع العلوم والفنون المختلفة . ولا يعنى إليوت بالفهم الصحيح الإلمام بالكلمات والعبارات والتراكيب ، فقد فلم بها كلها دون أن نصل إلى أى مرحلة

---

(١) *The Frontiers of Criticism.*
(٢) Coleridge.

من مراحل التقييم الجيد للنصوص الأدبية . ومعيار التقييم فى نظر إليوت هو ما نحس به من متعة عميقة حينما نقرأ نصاً من النصوص الجيدة ثم نستجيب لعظمته الفنية وقيمته الأدبية . ولا تتأتى هذه المزايا إلا على أساس الفهم السليم والاستجابة الصحيحة فهما عماد النقد المتكامل . إن نقص أحد هذه العناصر سيؤدى حتماً إلى عدم التهؤ أو التكيف على الوجه الصحيح ، ومن ثم نخرج عن النص الذى نحن بصدده ، وينشأ عن ذلك تفاعلات لا تمت له بأدنى صلة ، فهى من وحى خيالنا ، واستجابة لرغباتنا ونزواتنا .

كما أن الناقد الذى تشعبت ألوان معارفه وتخطت حدود النقد الأدبى وتطرقت إلى غيره من الفنون المختلفة ، لهو أقدر من غيره على وضع النصوص فى مكانها الملائم ، وهو أقدر أيضاً على توجيه انتباهنا نحو نواحى المتعة الأدبية والفنية التى تحدث عنها إليوت سالفاً . أما الناقد الذى يقتصر على الأدب وحده دون تعرضه إلى غيره من الفنون لابد وأن يكون نقده أميل إلى التجريد الخالص . وهذا هو الحال أيضاً فى الشعر ، فالشاعر الذى يقتصر على أسلوب شعرى معين لابد وأن يكون شاعراً أجوفاً . فلقد لعبت الخبرات المترامية والأفكار المتزاحمة والاتجاهات المتشعبة أدواراً عظيمة فى إخصاب الشعر وإثراء مكوناته وميادينه .

فمحيط النقد إذن لا يتصل بالمجردات ، وحصيلته لا تعتمد على الأقوال المأثورة ، كما أن خلاصته فى آخر الأمر لم تكن منتجاً من القوانين الجافة الصارمة والقواعد المتداولة التى عفى عليها الزمن فأصبحت بالية رثة لا تغنى ولا تسمن من جوع . إن النقد الحى هو الذى يعبر عن الحياة فى تكاملها بمبادئها وخبراتها ، وهو المرآة الصادقة لمعترك الحياة بمشكلاتها وتعقيد أمورها . وعلينا أن ندرك أن النقد الأدبى خاضع لعوامل شتى تاريخية واجتماعية وخلقية ، وأن هذه العوامل وهى متفرقة لا تفى بمهمة التقييم الصحيح . إنها ترشدنا إلى اتجاهات هذه الإشعاعات حيث تتجمع فى بؤرة واحدة تختلط فيها الفكرة بالوجدان وتتحد بها فى أصالة وعمق .

وعلى ذلك فلقد تبلورت مهمة الناقد فى تتبع هذه الإشعاعات وتبيان تجمعاتها للقارئ الذى قد يعجز عن الوصول إليها إلا بعد جهد وعناء . وتنحصر مهمته أيضاً فى إزاحة ما قد يكتنف النصوص من غموض وإبهام لتبدو جلية واضحة حتى يتمكن القارئ من فهمها والتفاعل معها على الوجه الصحيح . وهذا مما يتطلب من القارئ أيضاً فهماً عميقاً وإحساساً صادقاً وقدرة على التذوق فى غير تحيز .

* * *

مراحل إليوت النقدية ومميزاتها وخصائصها :

على ذلك يمكننا أن نقسم المراحل النقدية التى مر بها إليوت إلى ثلاث مراحل : الأولى وتنتهى فى سنة ١٩٢٨ وفيها نجده يضع التعاريف والأسس المبدئية العامة التى لازمته فى الفترتين التاليتين . وهذه المرحلة خاصة بمبادئ النقد بوجه عام والموضوعية الفنية على وجه التخصيص بما فى ذلك فكرته عن التقاليد والعمليات الإبداعية فى الخلق الفنى . ويدخل فى نطاق هذه المرحلة مقالاته عن « التقاليد والموهبة الفردية » (١٩١٧) و « البيان والدراما الشعرية » (١٩١٩) و « هاملت » ونظريته عن المعادل الموضوعى (١٩١٩) وكتابه عن « الغابة المقدسة أو مقالات فى الشعر والنقد » (١٩٢٠) ثم مقالاته عن « الشعراء الميتافيزيقيين » (١٩٢١) و « جون درايدن » (١٩٢٢) و « وظيفة النقد » (١٩٢٣) و « حوار عن الشعر المسرحى » (١٩٢٨) .

أما المرحلة الثانية فتمتد إلى سنة ١٩٣٤ ، وفى هذه المرحلة تتبلور آراء إليوت عن النقد وصلته بالاتجاهات الاجتماعية والتيارات الفكرية المختلفة . وفى هذه الفترة يظهر لنا مقاله الرائع عن « دانتى » (١٩٢٩) ثم مقالاته عن « الخبرة والتقاليد فى الأدب المعاصر »[1] (١٩٢٩) و « المقالات المختارة » (١٩٣٢) وكتابه عن « أهمية الشعر والنقد » (١٩٣٣) وكتاب آخر أطلق عليه « نحو

(١) "Tradition and Experiment in Present-Day Literature."

آلهة غرباء »[١] (١٩٣٤) .

أما المرحلة الأخيرة التي تبدأ بكتابه عن « المقالات القديمة والحديثة »[٢] (١٩٣٦) وتستمر إلى وفاته ، فهي اختلاط وامتداد للمرحلتين السابقتين ، وفيها إرساء لمعالم النقد السالفة ، ونمو وازدهار لآراء لم تكن قد اختمرت من قبل . ففي سنة ١٩٣٩ يظهر لنا كتابه عن « فكرة المجتمع المسيحي »[٣] وفي سنة ١٩٤١ كتاب آخر عن « وجهات نظر »[٤] ، وثالث في سنة ١٩٤٢ عن « موسيقى الشعر »[٥] ورابع في سنة ١٩٤٥ عن « ما هو الكلاسيكي ؟ » وفي سنة ١٩٤٨ أصدر كتابا عن « ملاحظات في تعريف الثقافة » ، وفي سنة ١٩٥٣ كتابا آخر عن « الأصوات الثلاث للشعر »[٦] ثم محاضرة عن « حدود النقد » وقد ألقاها في جامعة مانسيوتا في الثلاثين من أبريل سنة ١٩٥٦ .

من ذلك نتبين أن آراء إليوت في الفترة الأولى كانت مقصورة على الأدب الإليزابيثي وعن كتاب المسرح في عصر الملكة إليزابيث على وجه الخصوص ، ثم أبحاثه عن الشعر الميتافيزيقي التي نجد لها صدى قويًّا في شعره الذي كتبه في هذه الفترة وخاصة في قصيدة « الأرض الخراب » . ففي هذه القصيدة نجد امتداداً وتفاعلاً لنفس « التكنيك » الذي برع فيه شعراء المدرسة الميتافيزيقية في القرن السابع عشر وهو التصوير الغريب للرؤيا وربط الاتجاهات المتباعدة بعضها ببعض وجمعها حول محور واحد بالرغم من نفورها في منشئها ومبدئها .

ويتضح لنا هذا التقارب بين شعره ونقده في إعلانه في محاضرته عن « حدود النقد » أن آراءه النقدية ما هي إلا منتجاً لمراحله التجريبية في ميدان الشعر ،

---

(١) "After Strange Gods".
(٢) "Essays Ancient and Modern".
(٣) "The Idea of a Christian Society".
(٤) "Points of View".
(٥) "The Music of Poetry".
(٦) "The Three Voices of Poetry".

فإعجابه بالمدرسة الميتافيزيقية قد انعكس على الأشعار التى كتبها فى عشرينات هذا القرن . ومع أن هذا الإعجاب قد لازمه طيلة حياته إلا أنه أضاف إليه عدة اتجاهات بعد ذلك ومعظمها اتجاهات فلسفية وتصوفية كما نتبين فى مقاله عن « دانتى » الذى أصدره فى كتيب خاص .

فلقد اهتم إليوت بشعر دانتى واقتبس من « الكوميديا الإلهية » عدة مقتطفات نسجها فى ثنايا قصائده « كالأرض الخراب » و « رماد الأربعاء » و « الرباعيات الأربع » وكلها تدين بالولاء والتقدير لعبقرية الشاعر الإيطالى الكبير . ويتسم هذا التقدير فى معظم الأحيان بطابع الحماس وهو ما نلمسه فى ثنايا كتيبه عن دانتى منذ أول وهلة .

وأعقب ذلك محاولته لإرساء بعض القيم الاجتماعية والخلقية فى الأربعينات كما يتضح فى « ملاحظاته عن تعريف الثقافة » مبينا لنا كيف أن هذه القيم تنعكس على التيارات الفكرية للشعوب المختلفة وهى التى تؤثر بدورها على أساليب حياتهم . ثم انتقل فى الخمسينات للحديث عن الشعر المسرحى ويرجع هذا إلى اهتمامه بكتاب المسرح فى العصر الإليزابيثى .